مجلة الهدى

العدد : ٢٠٩ الموافق في محرم ١٤٢٠ هجري ٥ / ١٩٩٩ ميلادي

لمحات في فقه السنة : السنة والبدعة	بقلم : د. صلاح الدين النكدلي

كان رسول الله حريصاً على تعليم المسلمين قاعدتين هامتين:

الأولى: وجوب التمسك بهدي القرآن والسنة. وهذا لا يكون إلا بطلب العلم أو بالرجوع إلى أهل الذكر الربانيين.

الثانية: حُرمة التقرب إلى الله تعالى بما لم يشرعه في القرآن ، أولم يبينه الرسول ﷺ في السنة.

لذلك كان ﷺ يكرر في خطبه الجامعة هاتين القاعدتين ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: « كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوتُه ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش ، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم. ويقول: بُعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين أصبيعه: السبابة والوسطى. ويقول: « أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة... » الحديث. رواه مسلم.

وكان عليه الصلاة والسلام يحذر من إحداث شئ في الدين يظن فاعله أنه يحسن صنعاً ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ** » رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية لمسلم: « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ** ».

وكان ﷺ يوصي المسلمين بالاتباع وينهاهم عن الابتداع ، فعن العرباض بن سارية ﷺ قال: « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وَجِلتْ منها القلوب ، وذَرَفتْ منها العيون. فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع فأوصنا. قال: « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي ، وإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » رواه أبو داود والترمذي.

قال ابن حجر: « و « المحدثات » جمع مُحْدَثَة ، والمراد بها: ما أُحْدِثَ وليس له أصل في الشرع. ويسمى في عُرف الشرع بدعة ، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة. فالبدعة في عُرف الشرع مذمومة ، بخلاف اللغة فإن كل شيء أُحدث على غير مثال يسمى بدعة ، سواء كان محموداً أو مذموماً » فتح الباري (٢٥٣/١٣ . ويقول: « أما قوله ﷺ في حديث العرباض: « **فإن كل بدعة ضلالة** » بعد قوله:« **وإياكم ومحدثات الأمور** » فإنه يدل على أن المُحَدثَ يسمى بدعة. وقوله: « **كل بدعة ضلالة** »: قاعدة شرعية كلية بمنطوقها ومفهومها ؛ أما منطوقها فكأن يُقال: « حكم كذا بدعة. وكل

بدعة ضلالة » فلا تكون من الشرع ، لأن الشرع كله هدى ، فإن ثبت أن الحكم المذكور بدعة صحت المقدمتان ، وأنتجتا المطلوب. والمراد بقوله: « **كل بدعة ضلالة** » ما أُحدث ولا دليل له من الشرع بطريق خاص ولا عامٍّ » فتح الباري (١٣/ ٢٥٤)

ولا يخفى أن البدعة قد تكون في الاعتقاد كما تكون في الأعمال ، وأن بدعة الاعتقاد أشد خطراً ، وقد تفضي بصاحبها إلى الخروج من أصل الدين ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن الأئمة المحققين كانوا يحذرون من تسرب البدع إلى العقائد، ثم قال: « ومما حدث أيضاً تدوين القول في أصول الديانات ، فتصدى لها المثبتةُ والنفاةُ ؛ فبالغ الأول حتى شبّه ، وبالغ الثاني حتى عطَّل. واشتد إنكار السلف لذلك ، كأبي حنيفة وأبي يوسف والشافعي ، وكلامهم في ذمِّ الكلام مشهور ، وسببه أنهم تكلموا فيما سكت عنه النبي ﷺ وأصحابه. وثبت عن مالك أنه لم يكن في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر شيءٌ من الأهواء - يعني: بدع الخوارج والروافض والقدرية - وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعُهم ، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان ، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرهاً. ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل!! ، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عاميٌّ جاهل!!. **فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف واجتنب ما أحدثه الخلف**» فتح الباري: ١٣/ ٢٥٣

|||

أسباب الابتداع

يمكن إجمال أسباب الابتداع في الأمور الآتية:

- **تقديس الأشخاص**: فقد حذَّر رسول الله ﷺ من هذا الوباء الذي يحطم مقاييس الحق والعدل ، فقال: « لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبدٌ ، فقولوا: عبد الله ورسوله » رواه البخاري

وإن مما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين قد وقعوا فيما نهاهم عنه نبيهم ﷺ فنسبوا إليه ما لا ينبغي تحت شعار « حب الرسول » ! ، ولم يكتف فريق منهم بتجاوز الحد في تعظيم الرسول ﷺ ، بل ذهبوا إلى تعظيم « أوليائهم » واعتقاد أن لهم دوراً في تسيير الكون!!.

|||

- **تجاوز الحد المشروع للخوف والرجاء**: وقد حذر رسول الله ﷺ من البواعث التي تدفع المرء

إلى تجاوز الحد المشروع ، وأكد أن الاتباع كفيل بتحقيق معاني العبودية الحقة. عن أنس ﷺ قال: « جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخْبِروا كأنهم تقالُّوها ، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟!. قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخرُ: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أُفطر ، وقال الآخرُ: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟! أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » متفق عليه.

|||

- **قلة العلم:** عن عائشة رضي الله عنها قالت: « صنع النبي ﷺ شيئاً ترخَّص فيه وتنزَّه عنه قومٌ ، فبلغ ذلك النبيَ ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: **ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه؟! فوالله إني أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية** » رواه البخاري.

قال ابن حجر: « والمراد منه هنا أن الخير في الاتباع سواءٌ كان ذلك في العزيمة أو الرخصة ، وأن استعمال الرخصة بقصد الاتباع في المحل الذي وردت فيه أولى من استعمال العزيمة ، بل ربما كان استعمال العزيمة حينئذٍ مرجوحاً كما في إتمام الصلاة في السفر ، وربما كان مذموماً إذا كان رغبةً عن السنة ، كترك المسح على الخفين... وأشار - ﷺ - بقوله: « **أعلمهم** » إلى القوة العلمية ، وبقوله: « **أشدهم له خشية** » إلى القوة العملية ، أي: أنا أعلمهم بالفضل وأولاهم بالعمل به» فتح الباري: ١٣/ ٢٧٨

|||

- **الرؤوس الجهال:** فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبق عالماً ، اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً ، فَسُئلوا فأفْتَوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا» متفق عليه.

|||

- **الشبهات والشهوات:** أما الشبهات فإنها تبيض وتفرخ في أجواء الفتن السياسية والفتن الثقافية ، كما وقع بعد الفتنة يوم قتل عثمان بن عفان ﷺ ، وما حصل بفعل الفتنة بفلسفة اليونان ، وما ابتدعه أهل التصوف من عبادات ورياضات!! وأما الشهوات فيأتي في مقدمتها شهوة المال. لذلك كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه أن يقولوا في صلاتهم دعاءً جامعاً لما ينبغي أن يخافه المؤمن. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال

رسول الله ﷺ: « إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فَلْيَتعوّذ بالله من أربع ؛ يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » رواه مسلم وغيره. وكان ﷺ يأمر باتخاذ الأسباب الواقية من الفتن التي تعصف بالمفاهيم والمبادئ والقيم. فيقول ﷺ: « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل » رواه مسلم.

|||

- **انتشار الأحاديث الموضوعة**: وذلك على الرغم من تحذير الرسول ﷺ من خطورتها ، ووعيده لمن يتهاون في نقلها. عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد ، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » رواه مسلم.

الخلاصة :

- ذهب أكثر أهل العلم إلى استخدام مصطلح « البدعة » في العقائد والأعمال المخترعة بقصد التقرب إلى الله تعالى ، وهي التي لا يشهد لها نص خاص ولا عام ، واستخدموا مصطلح « السنة » للدلالة على الاتباع. وقد ظهر هذا في عباراتهم ، مثل: « طلاق السنة » و « طلاق البدعة » و « فلان من أهل السنة » و « فلان من أهل البدعة ». ولم ينكروا استخدام المعنى اللغوي للبدعة في غير أمور الشرع.

- تعني البدعة أن المبتدع يستحسن ما لم يشرعه القرآن والسنة ، وفي هذا خطأ كبير ، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « كل بدعة ضلالة ، وإن رآها الناس حسنة » رواه الدارمي ، ويبين ابن تيمية السبب الرئيس في خطورة البدعة فيقول: « قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يُتاب منها ، والمعصية يُتاب منها. ومعنى قولهم: إن البدعة لا يتاب منها ؛ أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله ، قد زُيَّن له سوءُ عمله فرآه حسناً ، فهو لا يتوب منه ما دام يراه حسناً ، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه ، أو أنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله ، فما دام يرى فعله حسناً ، وهو سيئٌ في نفس الأمر ، فإنه لا يتوب» مجموع الفتاوى: ١٠/ ٩

- تتسلل البدع إلى الناس متدثرة بثوب الشرع ، والدعوة إلى الخير ، والدفاع عن الإسلام ، وقد تكون في أول أمرها من الأمور المشتبهات التي لا يعلم حقيقتها كثير من الناس ، يقول الإمام حسن بن

علي البربهاري ، وهو من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل ، محذراً من البدع ؛ صغيرها وكبيرها: « واحذر صغار المحدثات ، فإن صغار البدع تعود حتى تصير كباراً ، وكذلك كل بدعة أُحدثت في هذه الأمة ، كان أولها صغيراً يشبه الحق ، فاغتر بذلك من دخل فيها، ثم لم يستطع المخرج منها ، فعظُمت وصارت ديناً يدان به... فانظر رحمك الله كل من سمعت كلامه ، من أهل زمانك خاصة ، فلا تعجلنَّ ولا تدخلنَّ في شئ منه حتى تسأل وتنظر: هل تكلم فيه أحد من أصحاب النبي ﷺ ، أو أحد من العلماء ؟ فإن أصبت فيه أثراً عنهم ، فتمسّك به ، ولا تجاوزه بشئ فتسقط في النار » طبقات الحنابلة: ٢/ ١٨-١٩

- إن شيوع البدع دليل على ضعف الأمة في علمها ، وعلمائها ، وأوضاعها السياسية ، قال عبد الله بن مسعود ﷺ يوماً لأصحابه: « كيف بكم إذا لبستكم فتنة ، يربو فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ، وتُتخذ سنة ، فإن غُيِّرت يوماً ، قيل: هذا منكر!. قيل: ومتى ذلك؟!. قال: إذا قلّت أمناؤكم ، وكثُرت أمراؤكم ، وقلّت فقهاؤكم ، وكثرت قراؤكم ، وتُفُقِّه لغير الدين ، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة » صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٧-٤٨)

وحين تشيع البدع يتأكد في حق المسلم البحثُ عن العلماء الربانيين الذين يُمسِّكون بالقرآن والسنة ، يقول محمد بن سيرين: « إن هذا العلم دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم » ، وقال أيضاً: « لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة ، قالوا: سمُّوا لنا رجالكم. فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثُهم ، ويُنظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » صحيح مسلم بشرح النووي (/ ٨٤).

- يستفاد من الحديث عن « السنة » و « البدعة » أن السنة على ضربين: **سنة فعلية وسنة تركية** ؛ فما جاءنا به رسول الله ﷺ فمن السنة العمل به على نحو ما بينه وعمل به رسول الله ﷺ ، وما تَرَكَهُ فمن السنة تَرْكُه. يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفِيتُم » رواه الدارمي

- إن الحرص على « الاتّباع » يقضي على « الابتداع » تحقيقاً لقول المعصوم ﷺ: « تركت فيكم شيئين ، لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يَردا عليَّ الحوض » صحيح الجامع الصغير ٢٩٣٤.

فالعلم هو العاصم من قواصم الفتن ، روى ابن أبي شيبة عن حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قال: « **لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك ؛ إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل** ».